حياة أعظم الرسل

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

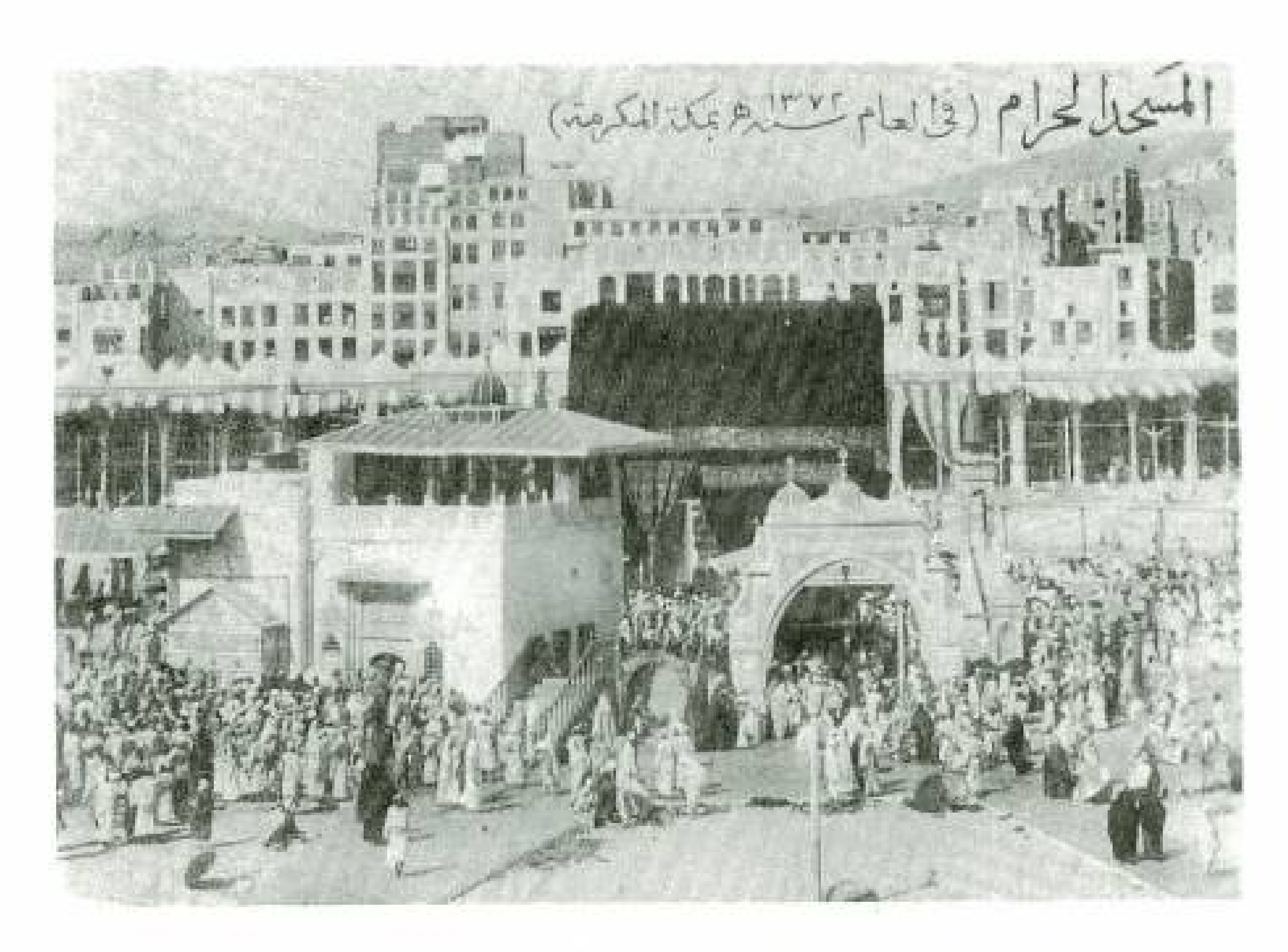
عَاشَ مُحمدٌ فى بَيتِ زَوجَتِهِ خَدِيجَةَ ، وَكَسَبَ مَعِيشَتَهُ بِاشتِغَالِهِ بِالتِّجَارَةِ لَهَا . وَقد فكَّرَ فِى مُساعَدَةِ عَمِّهِ أَبى طَالِبٍ الَّذِى رَبَّاهُ بعدَ مَوْتِ جَدِّهِ . وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ فَقِيرًا كَثِيرَ الأَوْلَادِ ، فَأَخَذَ مُحمدٌ عَلِيًّا ـــ وَهُوَ أصغَرُ أَبنَاءِ عَمِّهِ ـــ لِيُرَبِّيَهُ تَقدِيرًا لِعَمِّهِ ، وَشُكْرًا لَهُ . وَقَد أَحَبَّتْ

خَدِيجَةُ عَلِيًّا ، وَأَحَبَّهُ مُحمدٌ ، وَعَامَلاَهُ مُعَامَلَةَ ابنٍ لَهُمَا . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَمشِى مُحمدٌ إِلى الكَعْبَةِ ، وَيُفكِّرُ فِى أَنَّ ذٰلِكَ الْمَعْبَدَ الَّذِى بَنَاهُ النَّبِىُّ إِبرَاهِيمُ عَلَيهِ السَّلاَمُ لِيَكُونَ مَكَانًا لِعِبَادَةِ إِلٰهٍ وَاحِدٍ ، قد مُلِئَ بِأَصنامٍ لاَ تَنفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَلاَ تَرَى وَلاَ تَسمَعُ . صَنَعَهَا أَهلُ مَكَّةَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَخشَابِ ، وَعَدُّوهَا آلِهَةً لَهُم ، وَعَبَدُوهَا ، وَقَدَّمُوا الضَّحَايَا لَهَا . فَأَخَذَ مُحمدٌ يُفَكِّرُ فِى قَومِهِ ، وَتَضَايَقَ

كَثِيراً فَى نَفسِهِ ، وَتَأَلَّمَ لَحَالِهِم ، ثُمَّ نَظَرَ مُحمدٌ حَولَهُ فَوَجَدَ الْمُجتَمَعَ فَاسِدًا كُلَّ الْفَسَادِ ؛ فَالنَّاسُ يَشرَبُونَ الْخَمْرَ ، وَالأَغنِياءُ يَضطَهِدُونَ الفُقَرَاءَ ، وَيَأْكُلُونَ أَموَالَ الْيَتَامَى وَالأَرَامِلِ ، وَيُسَلِّفُونَ الْمُحتَاجِينَ نُقُودًا بِأَربَاحٍ بَاهِظَةٍ .

رَأَى مُحمدٌ فَى ذٰلِكَ الْمُجتَمَعِ الْفاسِدِ اِنتِشَارَ الْخَلاَعَةِ والْفُجُورِ ، رَأَى جَشَعَ الأَغنِيَاءِ وَطَمَعَهُم ، رَأَى القَسْوَةَ وَالوَحْشِيَّةَ إِلَى دَرَجَةِ قتلِ الْبَنَاتِ خَوفًا

مِنَ الْعَارِ ، وَقتلِ الْأَبنَاءِ خَوْفاً مِنَ الْفَقْرِ .
رَأَى الْمُلُوكَ يَتَّخِذونَ النَّاسَ عَبِيـداً لَهُم ، وَيُعَامِلُونَ الشَّعْبَ كَأَنَّهُ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ ، يَسُوقُهُ الرَّاعِى عَلَى حَسَبِ رَغْبَتِهِ وَمَصلَحَتِـهِ ، وَلاَ يُفَكِّـرُ فِـى الشَّعْبِ أَوْ مَصلَحَتِهِ . لِهـٰذَا كُلِّهِ اضطُرَّ مُحمدٌ أَن يَعيشَ بَعِيدًا عَن هـٰذَا الْمُجتَمَعِ الْفَاسِدِ .
فَكَانَ يزُورُ الْكَعْبَةَ ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى بيتِهِ ، وَيَعبُدُ اللهَ وَحدَهُ ، عَلَى دِينِ إبرَاهِيـمَ ، ويَدعُو اللهَ أَن يَهدِىَ قومَهُ إِلَى الْحقِّ .



المَسجد الحرام

(فى العام سنة ١٣٧٢ هـ بمكة المكرمة)

وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتْرُكُ بَيتَهُ ، وَيَذهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ فِى الْجَبَلِ بِالْقُربِ مِن مَكَّةَ ، وَيمكُثُ هُنَاكَ مُدَّةً ثُمَّ يَعُودُ إِلَى بَيتِهِ . وَكَانَت خَدِيجَةُ تُرسِلُ إِلَيهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ هُنَاكَ . وَأَحيَانًا تَعِيشُ مَعَهُ فِى الْغَارِ لِمُعَاوَنَتِهِ وَمُشَارَكَتِهِ فِيمَا أَعَدَّهُ اللهُ لَهُ ، وَالتَّفكِيرِ فِى خَالِقِ الشَّمسِ وَالْقَمَرِ ، وَالسَّمٰوَاتِ والْأَرضِ ، الْمُنَظِّمِ لِهٰذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ . وَقَد جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أَن يَأتِىَ النُّورُ بَعدَ الظَّلَامِ ، وَيُرسِلَ اللهُ رَسُولًا مَتَى وَصَلَ الفَسَادُ إِلَى نِهَايَتِهِ ؛ رَأْفَةً

بِخَلْقِهِ ، وَرَحْمَةً بِعِبَادِهِ . وَأَحسَّ النَّاسُ بِالْحَاجَةِ إِلَى نَبِيٍّ يُنقِذُ الْعَالَمَ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ ، وَيُزِيلُ الظُّلْمَ عَنِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَظْلُومِينَ ، وَيُصْلِحُ الْعَالَمَ ، وَيَدعُو إِلَى الْحَقِّ وَالعَدَالَةِ ، وَعِبَادَةِ إِلٰهٍ وَاحِدٍ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْحِجَارَةِ وَالأَصنَامِ .

رِسَالَةُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ :

وَقَد بَلَغَ مُحمدٌ مِنَ الْعُمرِ فِى ذٰلِكَ الْوَقتِ سِنَّ الْكَمالِ ، وَهِىَ أَربَعُونَ سَنَةً ، فَأَرسَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ؛ لِيُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظَّلاَمِ إِلَى النُّورِ ، وَمِنَ الْجَهلِ

إِلَى الْعِلمِ ، وَمِنَ الرَّذِيلَةِ إِلَى الفَضِيلَةِ . وَذَاتَ يَومٍ مِن شَهرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٦١٠ مِنَ الْمِيلاَدِ كَانَ مُحمدٌ يَتَعَبَّدُ فِى غَارِ حِرَاءٍ . فَنَامَ وَغَلَبَهُ النَّومُ ، فَنَزَلَ عَلَيهِ الْمَلَكُ وَهُوَ جِبرِيلُ ، وَنَادَى : « يَا مُحمد » ، فَاستَيْقَظَ عَلَى هٰذَا النِّداءِ ، فَقَالَ جِبرِيلُ : « اِقرَأْ » فَأَجَابَ مُحمدٌ بِماَ مَعنَاهُ : إِنِّى لاَ أعرِفُ الْقِراءَةَ . فَكَرَّرَ جِبرِيلُ الْأَمرَ ، وَقَالَ لَهُ : « اِقرَأْ » فَأَجَابَ مُحمدٌ وَقَالَ : إِنِّى لاَ أَعرِفُ الْقِرَاءَةَ . وَفى المَرَّةِ الثَّالِثَةِ ضَغَطَ عَلَيهِ

جِبرِيلُ بِقُوَّةٍ وَقَالَ لَهُ : « اِقْرَأْ » فَسَأَلَ مُحمدٌ جِبرِيلَ : « مَاذَا أَقرَأُ » ؟ فَقَالَ جِبرِيلُ : ﴿ اَقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ[1] . اِقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَقَرَأَ مُحمدٌ الآيَاتِ الَّتِى أَمَرَهُ جِبرِيلُ بِقِراءَتِهَا ، وَحَفِظَهَا عَلَى ظَهْرِ قَلبِهِ . ثُمَّ سَمِعَ جِبرِيل وَهُوَ يَقُولُ : « أَبْشِرْ يَا مُحمدُ ، أَنَا جِبرِيلُ ، وَأَنتَ رَسولُ اللهِ لِهِدَايَةِ الْعَالَمِ

(١) جمعُ عَلَقَةٍ ، وَهِىَ القِطعَةُ المتماسِكَةُ مِنَ الدَّمِ .

إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ » فَخَرَجَ مُحمدٌ مِنَ الْغَارِ ، وَهُوَ خَائِفٌ يَرتَعِدُ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى بَيتِهِ . وَعِندَ وُصُولِهِ قَالَ لِزَوْجَتِهِ بِصوْتٍ مُضطَرِبٍ : « زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي » أَىْ غَطُّونِي ، وَضَعُوا الغِطاءَ فَوْقِي .

غَطَّتْهُ خَدِيجَةُ ، وَانزَعَجَتْ عِندَ رُؤْيَةِ زَوْجِهَا وَهُوَ يَرتَعِشُ ، وَرَأَتْ أَنَّ الأَفضَلَ أَلا تَسأَلَهُ عَن شَيْءٍ حَتَّى يَستَرِيحَ ، وَجَلَسَتْ بِجَانِبِهِ حَتَّى تَطمَئِنَّ عَلَيهِ ، وَتُقَدِّمَ لَهُ كُلَّ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ .

وَبَعدَ قَلِيلٍ ذَهَبَتِ الرِّعدَةُ الَّتِى أَصَابَت

مُحمدًا ، فَهٰذِهِ هِىَ الْمَرَّةُ الأُولَى الَّتِى يُقَابِلُ فِيهَا جبرِيلَ ، فَكَانَتْ صَدْمَةً لَهُ .

أَفَاقَ مُحمدٌ ، وَرَجَعَ إِلَى حَالَتِهِ الْعَادِيَّةِ ، وَأَخبَرَ زَوْجَتَهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لَـهُ . وبِحِكْمَتِهَا طَمْأَنَتْهُ وَشَجَّعَتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : كَلاَّ ، واللهِ ، لاَيُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا . إِنَّكَ تَعطِفُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ ، وَتصدُقُ فِى كُلِّ مَا تَقُولُ ، وَتُؤَدِّى الأَمَانَـةَ ، وتُحسِنُ إِلَى الْفَقيرِ وَالْمِسكِينِ وَالْيَتِيمِ ، وَتُكرِمُ الضَّيفَ ، وَتَأْخُذُ لِلْمَظلُومِ حَقَّهُ

مِنَ الظَّالِمِ ، وَلاَشَكَّ أَنَّ اللّٰهَ قَدِ اختَارَكَ لِهِدايَةِ قَوْمِكَ ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ المُستَقِيمِ .

وَلِكَىْ تَتَأَكَّدَ خَدِيجَةُ مِنَ الْأَمرِ ذَهَبَتْ هِىَ وَزَوجُهَا مَعًا إِلَى ابنِ عَمِّهَا . وَهُوَ وَرَقَةُ بنُ نوفَل ، العَالِمُ المَسِيحِىُّ ، الَّذِى قَرَأَ الكَثِيرَ مِنَ الْكُتبِ الدِّينِيَّةِ بِعِنَايَةٍ وَفَهْمٍ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : — يَا ابْنَ عَمِّى ، اِسمَعْ مِن ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِى ، مَا حَدَثَ ؟ فَأَخبَرَهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِمَا رَآهُ . فَقَالَ

وَرَقَةُ : هٰذَا هُوَ الْملَكُ جِبرِيلُ الَّذِى نَزَّلَهُ اللّٰهُ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى مِن قبلُ . قَد أَرسَلَهُ اللّٰهُ إِلَى مُحمدٍ لِتَبلِيغِ رِسَالَتِهِ . وَهُوَ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ . وَلَن يُصَدِّقَهُ قَومُهُ . وَسَيُؤْذُونَهُ . وَيُعَذِّبُونَهُ . وَسَيُخْرِجُونَهُ مِن مَكَّةَ ، وَسَيُقَاتِلُونَهُ ، وَيَكْرَهُونَهُ حِينَمَا يُطَالِبُهُمْ بِتَغيِيرِ دِينِهِمْ . فَتَعَجَّبَ صَلَّى اللّٰهُ عَليهِ وَسَلَّمَ مِمَّا قَالَهُ وَرَقَةُ عَن قَومِهِ بِمَكَّةَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعلَمُ مِقدَارَ حُبِّهِم لَهُ ؛ حَتَّى سَمَّوْهُ الْأَمِينَ . وَسَأَلَ وَرَقَةَ :

هَل سَيُخرِجُونَنِى مِن بَلَدِى ؟ فأَجَابَهُ وَرَقَةُ : « لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ مُطلَقًا بِمثلِ مَا جِئْتَ بِهِ إلاَّ عُودِىَ . » أَىْ قُوتِلَ وَأُوذِىَ بَكُلِّ أَنوَاعِ الْإِيذَاءِ . وَفِى ذٰلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . » وَلِكَىْ يُتِمَّ وَرَقَةُ تَصدِيقَهُ بِرِسَالَةِ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَه : وَإِذَا بَقِيتُ حَيًّا حِينَمَا تَدعُو النَّاسَ إِلَى الدِّينِ الْحقِّ سَأُسَاعِدُكَ بِكُلِّ قُوَّتِى .

ثُمَّ قَبَّلَ مُحمدًا وَرَجَا لَهُ كُلَّ تَوفِيقٍ .
وَلٰكِنَّ وَرَقَةَ مَاتَ بَعدَ قَلِيلٍ .

رَجَعَ مُحمدٌ إلَى بَيْتِهِ وَمَعَهُ خَدِيجَةُ ، وَفَكَّرَ كَثِيرًا فِيما قَالَهُ وَرَقَةُ ، وَفِى الصُّعُوبَاتِ الَّتِى سَتَعتَرِضُهُ ، وَلٰكِنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ لَهُ : لاَ تَخَفْ ، وَلاَ تَحْزَنْ ؛ فَإِنَّ اللهَ مَعَك ، وَسَيَنصُرُكَ حَتَّى تَقُومَ بأَدَاءِ رِسَالَتِكَ الَّتِي اختَارَكَ لَهَا . وَأَحَسَّتْ خَدِيجَةُ بالسَّعَادَةِ بَعدَ زِيارَةِ ابنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ ، وَاسْتِمَاعِها لأَقوالِهِ .

اِنقَطَعَ جِبرِيلُ مُدَّةً عَنِ الـرَّسُولِ ، حَتَّى حَزِنَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، وَخَافَ أَن يَكونَ انقِطاعُهُ عَنهُ عُقُوبَةً مِن اللهِ .

وَذاتَ مَرَّةٍ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعَ إِلَيهِ بَصَرَهُ (عَيْنَيهِ) ، فَوَجَدَ جِبرِيلَ جَالِسًا بينَ السَّمَاءِ وَالْأَرضِ ، فَخَافَ ، وَرَجَعَ إِلَى بيتِهِ وَقَالَ لِخَدِيجَة : « دَثِّرُونِى دَثِّرُونِى » أَىْ لُفُّونِى فِى ثِيابِى . وَبَعدَ ذٰلكَ صَارَ مُحَمَّدٌ رَسُولاً لِلعَالَمِ كُلِّهِ .